



شرح عمدة الأحكام

لعبد الغني بن عبد الواحد المقدسي رحمه الله

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٨/٠٣ هـ

الدرس الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ؛ من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين . اللهم علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علِّمنا وزدنا علماً وأصلح لنا شأننا كله ولا تكنا إلى أنفسنا طرفة عين . أما بعد :

فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول كما ثبت في الصحيح : ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)) ، وقد قال أهل العلم رحمهم الله تعالى : إِنَّ الفقه في الدين يتناول الفقه الأكبر والأصغر ؛ أما الأكبر : فهو الاعتقاد والتوحيد الذي عليه قيام دين الله تبارك وتعالى . وأما الأصغر : فهو العبادات بأنواعها فرضها ونفلها . ومن علامة إرادة الله سبحانه وتعالى بعبده الخير أن يوفقه للفقه في الدين ؛ في الدين عقيدة ، وفي الدين عبادة وتقرباً إلى الله سبحانه وتعالى . ولهذا فإني في مستهل هذا المجلس في دراسة هذا الكتاب «عمدة الأحكام» أسأل الله عز وجل أن يجعل جلوسنا هذا من إرادته جل وعلا الخير بنا ، وأن يرزقنا في مجلسنا هذا العلم النافع ، وأن يمنَّ علينا بالعمل بهذا العلم ، وأن ينفعنا بما علِّمنا ، وأن يجعل ما منَّ علينا بعلمه حجةً لنا لا علينا إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

والكتاب الذي نشرع في مذاكرته كتاب «عمدة الأحكام» للإمام عبد الغني المقدسي رحمه الله تعالى ، ولعلي أولاً أذكر شيئاً مختصراً من التعريف بمؤلف هذا الكتاب رحمه الله تعالى ؛ فمؤلفه: هو الإمام الحافظ تقي الدين أبو محمد عبد الغني ابن عبد الواحد ابن علي ابن سرور ابن رافع ابن حسين ابن جعفر المقدسي الجَمَاعيلي الدمشقي الصالحي . كان مولده رحمه الله تعالى بجماعيل من أرض نابلس سنة أربع وأربعين وخمسائة . تلقى العلم عن كثير من الشيوخ ورحل كثيراً في طلب العلم وتحصيله ، وكانت له رحمه الله تعالى مكانة علمية عالية، وكان محل ثناء أهل العلم رحمهم الله تعالى .

أكتفي بنقل واحد في ثناء أهل العلم عليه على رفيق دربه وزميله في الطلب ألا وهو ابن خالته الإمام الشهير ابن قدامة المقدسي رحمه الله صاحب « المغني » وصاحب « العمدة في الفقه » ، فهذان ابنا خالة وترافقا في طلب العلم إلا أن عبد الغني مال إلى الحديث أكثر ، وابن قدامة مال إلى الفقه أكثر . يقول ابن قدامة المقدسي في الثناء على ابن خالته : « كان جامعاً للعلم والعمل ، وكان رفيقي في الصبا وفي طلب العلم ، وما كنا نستبق إلى الخير إلا سبقني إليه إلا القليل ، وكَمَّلَ الله فضيلته بابتلائه بأذى أهل البدع وعداوتهم إياه وقيامهم عليه ، ورزق العلم وتحصيل الكتب الكثيرة إلا أنه لم يعمر حتى يبلغ غرضه في روايتها ونشرها » .

ومن يطالع سيرته رحمه الله تعالى يجد أنها حافلة بذكر المآثر العظيمة والآداب الكريمة والأخلاق الفاضلة العالية وأيضا حُسن العبادة والخشوع والإقبال على الله سبحانه وتعالى والمحافظة على السنن والنوافل ، فكان يُذكر عنه في هذا الباب أخبار عجيبة جدا تدل على فضله رحمه الله تعالى ونبله .

ختم الله جل وعلا حياته بخاتمة عجيبة ومؤثرة جداً يرويها ابنه أبو موسى ؛ وهو من الحفاظ ومن العلماء ، يقول ابنه أبو موسى وهو يصف اللحظات الأخيرة من حياة والده : « مرض أبي في ربيع الأول مرضاً شديداً منعه من الكلام والقيام واشتد ستة عشر يوما ، وكنت أسأله كثيرا : ما تشتهي؟ فيقول : أشتهي الجنة ، أشتهي رحمة الله ، لا يزيد على ذلك ، فجئته بماء حار فمد يده فوضأته وقت الفجر فقال : يا عبد الله قم فصل بنا وخفف ، فصليت بالجماعة وصلى جالساً ، ثم جلست عند رأسه فقال اقرأ يس فقرأتها وجعل يدعو وأنا أؤمن ، فقلت : هنا دواء قد عملناه فاشربه ، فقال : يا بني ما بقي إلا الموت ، فقلت ما تشتهي شيئا ؟ قال : أشتهي النظر إلى وجه الله تعالى ، فقلت ما أنت عني راض ؟ قال بلى والله أنا عنك راض وعن إخوتك ، فقلت ما توصي بشيء؟ قال : مالي على أحد شيء ولا لأحد علي شيء ، قلت توصيني ؟ قال : أوصيك بتقوى الله والمحافظة على طاعته . فجاء جماعة يعودونه فسلموا فرد عليهم وجعلوا يتحدثون فقال : ما هذا ؟! اذكروا الله قولوا لا إله إلا الله ، فلما قاموا جعل يذكر الله بشفتيه ويشير بعينه ، فقمت لأناول رجلاً كتاباً من جانب المسجد فرجعت وقد خرجت روحه رحمه الله ، وذلك يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ست مائة للهجرة » .

هذه خلاصة عن هذا الإمام رحمه الله وعن حياته ، وحياته جديرة بأن يطالعها طالب العلم مطالعة جيدة للإفادة من سيرته وسير العلماء الأعلام لما في ذلك من نفعٍ عظيم وفائدة كبيرة لطالب العلم .

وبمناسبة الحديث الذي تقدم معنا وهو قول النبي عليه الصلاة والسلام ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)) فإن هذا الإمام -أعني عبد الغني المقدسي رحمه الله - له كتابان عظيمان:

■ أحدهما : في الفقه الأكبر الذي هو العقيدة ، وهو مطبوع بعنوان «عقيدة عبد الغني المقدسي» ، وقد يَسَّرَ الله عز وجل لي قبل أكثر من عشر سنوات عقد مجالس عديدة في دراسة وشرح ذلك الكتاب ، ثم طُبِعَ هذا الشرح وأسميته «تذكرة المؤتسي في شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي» .

■ وكتابه الآخر : هذا الذي بين يدينا في الفقه الأصغر ، فقه الأحكام ، وهو كتابٌ عظيمٌ في بابه . فنسأل الله عز وجل أن ييسر لنا إتمام هذا الكتاب على الوجه الذي يرضيه سبحانه وتعالى .

وأحاديث الأحكام لأهل العلم عناية بها من خلال مؤلفات كتبها أهل العلم في جمع أحاديث الأحكام ، فمثلما أن العلماء رحمهم الله جمعوا الأحاديث المتعلقة بالعقائد وببوابها تبويبا يتناسب مع الاعتقاد ومسائل الاعتقاد فكذلك الأحكام ؛ جمع أهل العلم الأحاديث المتعلقة بالأحكام ورتبها ترتيبا فقهيا على حسب المسائل الفقهية . وقد اعتنى جمعٌ من أهل العلم بجمع أحاديث الأحكام .

● ومن علماء الحنابلة ممن لهم مؤلفات في أحاديث الأحكام عبد الغني المقدسي هذا رحمه الله ، وله مؤلفان : هذا الذي بين يدينا وسماه «عمدة الأحكام» . وله كتاب آخر أوسع من هذا عُرف بـ«العمدة الكبرى في أحاديث الأحكام» .

● ومن المؤلفات في أحاديث الأحكام : «المنتقى في الأحكام الشرعية من كلام خير البرية» للإمام أبي البركات عبد السلام بن تيمية الحراني .

● ومنها كتاب «المحرر في الحديث» لشمس الدين محمد ابن أحمد ابن عبد الهادي المقدسي .

● ومنها كتاب «أصول الأحكام» للشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله .

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا كتاب «عمدة الأحكام» للمقدسي رحمه الله كتابٌ عظيم جدًّا في بابه تميز بميزات كثيرة وخصائص عديدة لعلِّي ألخِّص بعض هذه الميزات والخصائص لهذا الكتاب :

■ أولها : أن هذا الكتاب اشتمل على عدد كبير من أحاديث الأحكام مرتبةً حسب أبواب الفقه ترتيبًا دقيقًا ، مع عناية دقيقة بجمع هذه الأحاديث وتبويبها وترتيبها .

■ ثانيًا : أن مصنّفه رحمه الله تعالى اقتصر في جمع أحاديثه على الصحيحين -صحيح البخاري ومسلم- أو أحدهما ، وقد اتفق أهل العلم على أنه لا أصح منهما بعد كتاب الله تبارك وتعالى .

■ الأمر الثالث : المكانة العلية لمصنّفه وإمامته في الدين ومنزلته الرفيعة فيه ، ومن يطالع ترجمته يتبين له ذلك ، تتبين له المكانة العلمية التي منَّ الله سبحانه وتعالى عليه بها ، ولا سيما ما تميز به من عناية دقيقة بأحاديث رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

■ رابعًا : أن هذا الكتاب -وهذا أمرٌ يُعلم بمطالعة تراجم أهل العلم- يُعدُّ من أوائل الكتب التي اعتنى العلماء بحفظها في أول مراحل الطلب بعد القرآن الكريم ، ومن يطالع تراجم عدد من الأئمة وأهل العلم المتقدمين والمتأخرين يجد أنه يُذكر في ترجمة عدد منهم أنه حفظ عمدة الأحكام .

■ خامسًا : عناية أهل العلم به شرحًا في مصنفات ، وقد جاوزت المؤلفات التي كُتبت حول هذا الكتاب الأربعين كتابًا ، ولا شك أن كثرة هذه الشروحات والمؤلفات حول هذا الكتاب تدل دلالة واضحة على مكانة هذا الكتاب عند أهل العلم ، إضافةً إلى المجالس الكثيرة العديدة التي عقدها أهل العلم قديمًا وحديثًا في مدارس هذا الكتاب والإفادة منه .

■ سادسًا : أن من منَّ الله عليه بإتقان حفظ هذا الكتاب وفهمه فإنه بإذن الله تبارك وتعالى يبلغ مرحلةً جيدةً في التحصيل العلمي ، فتكون عبادته لله سبحانه وتعالى على بصيرة ، ويكون أهلًا لتوجيه الناس في صلاتهم ، في صيامهم ، في مسائل الدين الأخرى التي تمس حاجة الناس إليها .

ولهذا ينبغي أن يكون اهتمام من الإخوة الكرام طلاب العلم صغارًا وكبارًا بحفظ هذا الكتاب ، وأحاديث هذا الكتاب أربعمائة وثمان وأربعين حديثًا ، قل أربعمائة وخمسين ؛ إن حفظ طالب العلم في كل يوم عشرة أحاديث أنهى حفظه في خمس وأربعين يومًا ، وإن حفظ في كل يوم

خمسة أحاديث أنهى حفظه في تسعين يوماً في ثلاثة أشهر ، فلا يحتاج وقت طويل حفظ هذا الكتاب . ولهذا من المفيد جداً أن يضع الإنسان لنفسه برنامج ثابت في حفظ هذا الكتاب حسب ما يعلم من قدرته ووقته ونشاطه ؛ إما مثلاً عشرة أحاديث في اليوم فينهيها في خمسة وأربعين يوماً ، أو خمسة أحاديث في اليوم ينهيها في تسعين يوماً ، أو أقل من ذلك ، المهم أن يضع لنفسه برنامجاً يلزم نفسه به .

ونسأل الله الكريم بمَنِّه وكرمه أن يوفقنا أجمعين وأن يمنَّ علينا بالعلم النافع والعمل الصالح ، ونبدأ مستعينين بالله طالبين مدَّه وعونه تبارك وتعالى بقراءة هذا الكتاب .

قال الإمام الحافظ رحمه الله ؛ أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي رحمه الله :

الحمد لله الملك الجبار ، الواحد القهار ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ، وصلى الله على النبي المصطفى المختار ، وعلى آله وصحبه الأطهار . أما بعد : فإن بعض إخواني سألني اختصار جملة في أحاديث الأحكام مما اتفق عليه الإمامان : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري رحمه الله تعالى ، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري رحمه الله تعالى ، فأجبتهم إلى سؤاله رجاء المنفعة به . وأسأل الله أن ينفعنا به ، ومن كتبه أو سمعه أو حفظه أو نظر فيه ، وأن يجعله خالصاً لوجهه ، موجباً للفوز لديه فإنه حسبنا ونعم الوكيل .

هذه مقدمة المصنف أبو محمد عبد الغني المقدسي رحمه الله تعالى لكتابه عمدة الأحكام مبيناً فيها سبب تأليفه وجمعه لهذا الكتاب المبارك النافع ؛ بدأها بحمد الله جل في علاه والثناء عليه سبحانه وتعالى بما هو أهله .

وقوله ((الحمد لله)) ؛ الحمد : هو الثناء على الله عز وجل مع حبه جل وعلا ، والثناء عليه : ثناءً عليه بأسمائه وصفاته ، وثناءً عليه بمننه وآلائه سبحانه وتعالى . والثناء الذي هنا من هذا النوع ؛ النوع الأول الذي هو الثناء على الله بذكر أسمائه جل وعلا وصفاته .

قال ((الحمد لله)) ، وقوله «الله» هذا الاسم العظيم الذي هو علم على الله عز وجل دالٌّ على ألوهية الله جل وعلا وأنه المعبود بحق ولا معبود بحق سواه كما قال ابن عباس رضي الله عنهما :

« الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين » . فقلوه « ذو الألوهية » أي الذي له الصفات العظيمة الجليلة التي بها استحق أن يؤله وأن يُعبد وأن يُخضع له ويدل ، وقلوه « ذو العبودية » أي أن هذا الاسم يستوجب ممن آمن به حقاً أن يفرد الله عز وجل بالذل والخضوع والعبادة فلا يجعل معه شريكاً في شيء منها .

وقوله ((الملك)) أي الذي بيده سبحانه وتعالى ملكوت كل شيء ، فهو الملك للسموات والأرض وما بينهما ، الملك لكل شيء جل وعلا .

((الجبار)) وهو اسمٌ ورد في القرآن في موضع واحد مقروناً باسم الله تبارك وتعالى الملك في قوله جل وعلا ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ

﴿[الحشر: ٢٣]﴾ ، فهو ذُكر في موضع واحد من القرآن مضموماً إلى هذا الاسم . والجبار من معانيه: القهر والبطش والقوة ، ومن معانيه : الرأفة والرحمة ، فالجبار فيما يتعلق بأهل الظلم والبغي والشر فإن هذا الاسم مدلوله فيما يتعلق بحال هؤلاء هو البطش والقوة والانتقام والقدرة والقهر ، وأما المعنى الآخر فهو يختص بأوليائه وأصفيائه ، ولهذا من دعاء النبي عليه الصلاة والسلام بين السجدين : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاجْبُرْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي» ، ومنه «جبر الله كسره» أي مصابه ، فهذا المعنى يتعلق بباب الرأفة والرحمة واللفظ والإحسان .

وقوله ((الواحد القهار)) هذان الاسمان وردا في القرآن مقترنين في ستة مواضع ، بل إن اسم الله جل وعلا «القهار» ورد في ستة مواضع من القرآن لم يأت في موضع منها إلى مقترناً باسمه تبارك وتعالى «الواحد» .

والقهر والتوحيد متلازمان ؛ «الواحد» هذا اسم يدل على الوحدانية ووجوب توحيده وإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة وإخلاص الدين له ﴿الرَّبُّ مُتَّفِقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

﴿[يوسف: ٣٩]﴾ ، فهذا الاسم يدل على الوحدانية والتفرد ووجوب إخلاص الله وحده تبارك وتعالى بالعبادة وعدم اتخاذ الشركاء والأنداد . و«القهار» هذا الاسم يدل على أن القهر بيد الله ، فجميع المخلوقات خاضعة له طوع تدييره وطوع تسخيريه وأن مشيئته فيهم نافذة وقدرته شاملة وأنه لا يعجزه شيء ، قهر جميع المخلوقات سبحانه وتعالى فهم أجمعين طوع تدييره وتسخيريه سبحانه وتعالى .

وهذان الاسمان «الواحد» و«القهار» متلازمان ، يقول ابن القيم رحمه الله : « لا يكون القهار إلا واحدا ؛ إذ لو كان معه كفؤ له فإن لم يقهره لم يكن قهّاراً على الإطلاق ، وإن قهره لم يكن كفؤاً له ، وكان القهار واحداً » . كلامه رحمه الله مفاده أن هذين الاسمين متلازمين ؛ لا يكون القهار إلا واحداً ، ولا يكون الواحد إلا قهّاراً ، فالاسمان متلازمان . وهذا يستفاد منه أن معرفة الله بالقهر أي أن المخلوقات كلها طوع تديره وتسخره جل وعلا وأنه لا يعجزه شيء يستوجب من كل عبد أن يفرد ذله لهذا القهار سبحانه ، لأن كل عظيمٍ تتعلق القلوب به أو تظن أن نفعها يحصل من جهته فهو تحت قهر الله وتحت تديره سبحانه وتعالى ، فالتوحيد والقهر متلازمان .

قال : ((وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له)) هذه كلمة التوحيد ، وهي قائمة على النفي والإثبات ؛ نفي العبودية عن كل من سوى الله ، وإثباتها لله وحده جل في علاه . قوله « وحده لا شريك له » هذا تأكيد لكلمة التوحيد ، لأن هذه الكلمة قائمة على النفي والإثبات فأكد الإثبات بقوله «وحده» ، وأكد النفي بقوله «لا شريك له» .

وقوله ((رب السموات والأرض وما بينهما)) أي الذي له الربوبية في السماوات والأرض خلقاً ورزقاً وتديراً وإحياء وإماتة وتصرفاً .

((العزیز الغفار)) ؛ العزیز : أي الذي له جميع معاني العزة ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥] ؛ عزة القوة ، وعزة الامتناع فلا يحتاج إلى أحد غني عن سواه ، وعزة القهر والغلبة . فالعزیز: الذي له جميع معاني العزة .

والغفار : الذي يغفر الذنوب ، ولا يغفر الذنوب إلا هو سبحانه وتعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] .

وهذان الاسمان «العزیز» ، «الغفار» جاءا مقتربين ، بل إن هذا الثناء على الله بدءاً من قوله الواحد إلى قوله الغفار مقتبس من قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [ص: ٦٥-٦٦] .

ثم ثنى رحمه الله تعالى بالصلاة والسلام على النبي المصطفى المختار صلوات الله وسلامه عليه ،
والصلاة عليه هي دعاء المسلمين له ، وصلاة الله عليه ثناؤه عليه في الملاء الأعلى ، فصلاة
المؤمنين عليه طلبهم ذلك له صلى الله عليه وسلم من الله جل في علاه .

وقوله ((المصطفى المختار)) أي الذي اصطفاه الله واجتبه ، وهو صفوة عباد الله وخيرة الله من
خلقه ، قال الله تعالى ﴿اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] ، وقال
: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] ، فهو صلوات الله وسلامه عليه الرسول المصطفى
والنبي المجتبي المختار صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((أما بعد : فإن بعض إخواني سألني اختصار جملة في أحاديث الأحكام مما اتفق عليه
الإمامان أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري ، وأبو الحسين مسلم بن
الحجاج القشيري النيسابوري رحمهما الله)) ؛ وما اتفق عليه هذان الإمامان هو أصح الكلام
بعد القرآن باتفاق أهل العلم .

وهذا الذي طلب من عبد الغني كان طلبه مباركا ، من الناس من هو مبارك حتى في سؤاله
لأهل العلم ، كم من سؤال ترتب عليه خير عظيم !! ولا سيما الأسئلة التي تحسن فيها نية
السائل فيرغب من خلال سؤاله بنفع نفسه ونفع إخوانه ؛ ولهذا الأسئلة قد تكون أسئلة
تعليمية مثل ما جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسأله عن الإسلام وعن الإيمان وعن
الإحسان ثم في تمام الحديث قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((هذا جبريل أتاكم يعلمكم
دينكم)) وهو إنما كان سائلا في كل الأمور ! فسمى أسئلته تعليمًا . فهذا الرجل لا يُدرى من
هو لكن الله جل وعلا يعلم من هو ، سأل هذا السؤال وترتب على هذا السؤال كتابة هذا
المؤلف القيم فيكتب له أجره وأجر الانتفاع به لأن الدال على الخير كفاعله ، ومن كان سببا في
الخير يكون شريكا ، وفضل الله سبحانه وتعالى واسع .

قال : ((سألني اختصار جملة في أحاديث الأحكام)) ولا شك أن اختصار أحاديث الأحكام
ولا سيما ما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم من أنفع ما يكون لطالب العلم أن يجمع له
هذه الأحاديث وأن يعتني بحفظها فتكون زادًا عظيما له في التعبد والتقرب إلى الله سبحانه
وتعالى وفي تعليم الآخرين ونفعهم . ويعتبر هذا شرط للمصنف رحمه الله في كتابه هذا ؛

الاقتصار على ما اتفق عليه البخاري ومسلم ، لكنه خالف هذا الشرط في أحاديث قليلة يأتي ذكرها أو الوقوف عليها في مواضعها من مصنفه رحمه الله تعالى .

قال : ((فأجبتَه إلى سؤاله رجاء المنفعة به)) أي أن هذا السؤال وقع موقعه عند الإمام ابن عبد الغني رحمه الله تعالى فرجاء المنفعة والاستفادة كتب هذا الكتاب وجمع ها المؤلف الذي بارك الله سبحانه وتعالى به ونفع به نفعا عظيما .

ثم دعا بهذه الدعوات قال : ((أسأل الله أن ينفعنا به، ومن كتبه أو سمعه أو حفظه أو نظر فيه ، وأن يجعله خالصاً لوجهه ، موجباً للفوز لديه فإنه حسبنا ونعم الوكيل)) ؛ وقوله رحمه الله « فإنه حسبنا ونعم الوكيل » هذه كلمة عظيمة جداً ، ومعنى «حسبنا الله» أي الله كافينا . و«الوكيل» اسم من أسمائه تبارك وتعالى وهو الذي لا يُتوكل إلا عليه ولا يُعتمد إلا عليه ولا يلتجأ إلا إليه .

وطالب العلم بحاجة إلى توفيق الله ومعونته ومدّه وتسديده ؛ ولهذا مثل هذه الكلمة عظيمة جداً في الفرع إلى الله عز وجل واللجوء إليه ، وهي تقال بين يدي طلب الأمور النافعة من خير الدنيا والآخرة ومن ذلك طلب العلم ، وتقال أيضا في دفع المخاوف والشور ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] . قال عز وجل : ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨] ؛ فقلوه ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يتناول الأمرين معا : ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ ، ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ ، فتقول : ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ في طلب الرحمة وتقول ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ في كشف الضر . وقول المصنف لها وإتيانه بها هذا من باب طلب الخير طلب الرحمة طلب العلم ، فهي يؤتى بها في هذا المقام وفي هذا المقام كما بيّن ذلك أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

قال المصنف رحمه الله :

كتاب الطهارة

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ - وَفِي رِوَايَةٍ: بِالنِّيَّاتِ - وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَاجَرَتْهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ)).

قال رحمه الله تعالى ((كتاب الطهارة)) ؛ كتب الأحكام وكذلك أيضًا كتب أحاديث الأحكام أول ما يُبدء به فيها كتاب الطهارة ؛ وذلك لأن أعظم فرائض الإسلام وأعظم الأحكام وأجلّ العبادات هي الصلاة ، فهي أعظم ما فرض الله سبحانه وتعالى على عباده بعد التوحيد ، والصلاة لا تُقبل إلا بالطهارة ، فكتب الأحكام تبدأ بكتاب الصلاة لكن يُقدّم على كتاب الصلاة كتاب الطهارة لأن الصلاة لا تُقبل إلا بالطهارة ، فلأجل هذا عامة كتب الأحكام وكتب أحاديث الأحكام تبدأ بكتاب الطهارة ، ويراد بالطهارة : أي من الحدث الأكبر والحدث الأصغر كما سيأتي تبين ذلك من خلال ما ساقه رحمه الله تعالى من أحاديث .

وبدأ رحمه الله تعالى بهذا الحديث العظيم حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ حديث ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) أو ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ)) ، وهذا الحديث - كما قال الإمام الشافعي رحمه الله - ثلث العلم ويدخل في سبعين بابًا من الفقه ، هكذا قال رحمه الله تعالى ؛ ثلث العلم : لأن أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ترجع إلى أصول جامعة من حديثه عليه الصلاة والسلام ، من أهل العلم من أرجعها إلى ثلاثة أحاديث ، يأتي في مقدمة هذه الأحاديث حديث ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) ، ويقول الإمام عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله : «من أراد أن يصنّف كتابًا فليبدأ بحديث ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))» ولهذا صدّر جماعة من أهل العلم كتبهم بهذا الحديث ومنهم الإمام البخاري رحمه الله تعالى ، بل إنه أقام هذا الحديث مقام الخطبة التي يؤتى بها عادة بين يدي المصنفات إشارة منه رحمه الله تعالى إلى أن كل عملٍ لا يراد به وجه الله تبارك وتعالى لا يقبله الله ، ومن ذلكم العلم .

ولهذا فإن تصدير عدد من أهل العلم مؤلفاتهم العلمية بهذا الحديث هو من باب التنبيه للنفس ولطالب العلم ولقارئ الكتاب أن يصحح نيته في قراءته للكتاب وأن يجعل نيته في هذه القراءة

والتعلم والتفقه والمدارسة والمذاكرة من أجل الله خالصاً لوجهه سبحانه وتعالى ، ومن أعظم ما يعين على إخلاص النية في طلب العلم : أن يتذكر طالب العلم أن طلب العلم نفسه عبادة من جملة العبادات التي يُتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى ، بل قال بعض السلف «ما تُقرب إلى الله سبحانه وتعالى بمثل طلب العلم» ، فطلب العلم الشرعي المستمد من الكتاب والسنة قرينة من أعظم القرب ومن أعظم ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى ، فإذا دخل الطالب في دراسة الكتاب وكان أول ما يقف عليه هذا الحديث العظيم المبارك ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) يكون بإذن الله معونةً له في تصحيح نيته، لأن من يطلب العلم قد يطلب العلم لله وقد يطلب العلم لغير الله ، مثل ذلك عموم الأعمال ، النبي صلى الله عليه وسلم سئل في الجهاد قيل «الرَّجُلُ: يُقَاتِلُ حِمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟» قَالَ: ((مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)) ، فنيّات الناس في الأعمال متفاوتة والأعمال معتبرة بنياتها ومن ذلكم طلب العلم ، ولهذا التصدير بهذا الحديث مهم جداً أن يُبدأ به وأن يبدأ طالب العلم بحفظه ومذاكرة مضامينه حتى يصحح هذه النية في الطلب فيجعلها لوجه الله سبحانه وتعالى خالصة .

وقوله في هذا الحديث ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ)) وفي رواية ((بِالنِّيَّاتِ)) أي : أن الأعمال معتبرة بنياتها .

والنية تارة تطلق ويراد بها نية العمل ، وتارة تطلق ويراد بها نية المعمول له العمل المتقرب له بالعمل .

■ فتارة تطلق ويراد بها نية العمل ؛ والمراد بنية العمل : إما التمييز بين عمل وعمل عبادة وعبادة ، أو التمييز بين عادة وعبادة ، مثلاً الغسل قد يكون المراد به نظافة البدن ، وقد يكون المراد به رفع الحدث الأكبر ، والذي يميز هذا عن هذا هو النية . فالنية التي هي نية العمل هي التي يتميز بها عبادة عن عبادة ، ما الذي يميز صلاة النافلة عن الفريضة ؟ إلا لأن هذه نيتها فرض وهذه نيتها نفل ، ما الذي يميز صيام الفرض عن صيام النفل ؟ إلا النية ، العمل واحد ، فالذي يميز العبادة عن العبادة الفرض على النفل مثلاً هو النية ، والذي يميز العادة عن العبادة هي النية ، فتارة تطلق النية ويراد بها نية العمل ، ومحل بحثها كتب الأحكام .

■ وتارة تطلق النية ويراد بها المعمول له العمل ، من تُقَرَّب له بالعمل ، وهو الإخلاص ، وهذا النوع من النية محل بحثه كتب التوحيد وكتب العقائد . نية المعمول له أي تمييز بين معبود ومعبود ، مُتَقَرَّب إليه ومتقرب إليه ، ولهذا يجب أن تكون نية العبد لله أي خالصة لا يقصد بالعمل إلا وجه الله سبحانه وتعالى .

فإذا النية : هي القصد والإرادة ومحلها القلب ، وهي مرتبتان : نية العمل ، ونية المعمول له أو المتقرب إليه بالعمل.

قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ)) وفي رواية ((بِالنِّيَّاتِ)) أي : إنما الأعمال معتبرة بنياتها ، فمثلا من حيث القبول والرد إنما الأعمال معتبرة بنياتها : بكونها خالصة لله سبحانه وتعالى .

ولعلنا نكتفي بهذا القدر وفي الدرس القادم نعاود للكلام على هذا الحديث حديث ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا أجمعين بما علّمنا وأن يزيدنا علما ، وأن يصلح لنا شأننا كله وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايعنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ، اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها مولاه . اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفة والغنى ، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، من طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا ، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .